مـن الذاكــرة..

د. محمـد صـابر عـرب

أعتقد أن طه حسين سيظل لقرون قادمة مثار دهشة المشتغلين ليس في مجال النقد الأدبي فقط؛ وإنما في المجالين الفكري والسياسي على السواء. وإذا كان تراث طه حسين الفكري والأدبي قد خضع لدارسات عديدة، سواء من جانب العرب أو الأجانب، إلا أن تراثه السياسي والاجتماعي لم يلقيان نفس العناية، ربما لأن مواقف طه حسين السياسية وعلاقته بالقوى الحزبية ومشروعه الاجتماعي جميعها كانت أكثر وضوحًا في الصحافة.

والتراث الصحفي في مجمله تراث معرض للاندثار والضياع بعكس الكتاب الذي يحفظ بوسائل عديدة، ولعل ما أقدمت عليه دار الكتب الوثائق المصرية حينما جمعت تراث طه حسين الصحفي ونشرته ربما يفتح المجال للعديد من الدراسات والبحوث الرصينة، وسوف نكتشف أننا أمام شخصية مثيرة للدهشة والاستغراب، سواء بسبب كثرة المقالات اليومية أو تنوعها.

والـلافت للنظر أن ما كتبه طه حسين في السياسة والفكر الاجتماعي يفوق كثيرًا ما كتبه في شتى المجالات الأخرى لدرجة أن المقالات السياسية وحدها جاءت في ثلاثة مجلدات من الحجم الكبير، بينما ما كتبه في الأدب والتعليم جاء في ثلاث مجلدات فقط.

لم يكن طه حسين حزبيًّا بالمعنى التنظيمي، على الرغم من أنه دخل الحياة السياسية من البداية متأثر بلطفي السيد، وجماعته (حزب الأمة)، ثم توطدت علاقاته بأسرة آل عبد الرازق "مصطفى وعلي عبد الرازق" (حزب الأحرار الدستوريين)، وكانت كتاباته في صحف الدستوريين ضد الوفد وهجومه على سعد زغلول بمثابة طلقات مدوية في الحياة السياسية المصرية، ورغم ذلك لم يكن عضوًا تنظيميًّا في حزبهم إلى أن حدثت قضية كتابه الشهير "الشعر الجاهلي" وكانت تجربة قاسية خرج منها العميد أشد قوة وصلابة، لكن الأحداث السياسية المتوالية جعلت الرجل يعيد حساباته وخصوصًا بعد أن ترأس الحكومة "محمد محمود" زعيم الدستوريين (يونيو ١٩٢٨ – أكتوبر ١٩٢٩)، وهي الوزارة التي عرفت باسم وزارة (اليد القوية) فقد عطلت الدستور والبرلمان وحكمت البلاد بقبضة من حديد.

لقد أبدى طه حسين استياءه وسخطه على هذه الوزارة وأسرَّ برأيه إلى صديقه الشيخ "مصطفى عبد الرازق"، وخصوصًا بعد أن شعر بمرارة وصدمة حقيقة لأن أستاذه وصديقه "لطفي السيد"، قد قبل أن يكون وزيرًا للمعارف في هذه الحكومة مؤثرًا الصداقة على المبادئ والقيم الديمقراطية. وربما شعر طه حسين أن أزمته مع كتاب الشعر الجاهلي كانت بمثابة اختيار حقيقي للأحرار الدستوريين الذين ناصروه لكن الرجل قد اكتشف أن معظم المصريين كانوا مع الوفد، وأن معاركه الفكرية لن تكلل بالتأييد الشعبي إلا إذا كان الوفد نصيرًا لها.

وإذا كان طه حسين قد قرر أن يعتزل السياسة ويتفرغ لعمله الجامعي ولكتاباته الأدبية والفكرية، إلا أن السياسة لم تترك الرجل وخصوصًا بعد أن انتخب عميدًا لكلية الآداب في ظل حكومة صدقي الأولى (يونيو ١٩٣٠ – يناير ١٩٣٣)، التي استندت إلى سلطة القصر وسعى رئيسها لكي يؤلف حزبًا جديدًا مستخدمًا نفوذ الإدارة من حشد الأنصار والمؤيدين، وجاء حزبه الجديد "حزب الشعب" بعيدًا تمامًا عن الشعب، وأجريت انتخابات قاطعها الشعب، لكنها أتت ببرلمان زورت فيه الحكومة العملية الانتخابية بكل فجاجة.

لقد تابع طه حسين هذا التدهور في الحياة السياسية، وخصوصًا بعد أن احتفظ صدقي باشا لنفسه بوزارتي الداخلية والمالية إلى جانب رئاسة الحكومة،

وبسخرية شديدة يتساءل طه حسين قائلاً: هل يفكر صدقي باشا في أن يحكم البلاد بسيف المعز وذهبه؟

لم يتحمل صدقي انتقادات طه حسين، لذا قرر نقل العميد من الجامعة إلى وظيفة صغيرة بديوان وزارة المعارف، وقد أحدث هذا النقل ردود فعل غاضبة في الجامعة المصرية، فاجتمع مجلس كلية الآداب وأرسل احتجاجًا إلى وزير المعارف (حلمي عيسى) متضمنًا اعتراضًا على نقل العميد دون احترام لاستقلال الجامعة، وتظاهر الطلاب أمام مكتب رئيس الجامعة (لطفي السيد)، الذي شعر بحرج شديد على اعتبار أن الأستاذ قد تم نقله دون أخذ رأي الجامعة، لذا قام بزيارة صدقي باشا مقترحًا عودة العميد أستاذًا في كليته وليس عميدًا، وقبل صدقي هذا الاقتراح على غير اقتناع، ولم يلبث أن تراجع عن تنفيذ وعده. عندئذ قدم لطفي السيد استقالته من رئاسة الجامعة (٩ مارس ١٩٣٢)، وجاء خطاب الاستقالة بمثابة وثيقة بالغة الأهمية سجلت موقفًا فريدًا لأستاذ الجيل، الذي أكد في استقالته على أنه لا يستطيع أن يقر الوزارة على هذا التصرف الذي يذهب بكل الفروق التي تميز الجامعة عن غيرها من المؤسسات الأخرى.

وفي ٢٩ مارس ١٩٣٢ أقدمت الحكومة على إجراء أكثر قسوة حينما قررت إحالة طه حسين إلى المعاش وفصله من العمل الحكومي، ولم يكن

الأستاذ قد تجاوز عمره الأربعين عامًا، وأخذوا منه مسكنه الحكومي، وأغرقوه بالشتائم والاتهامات التي حاولت النيل من عقيدته لدرجة محاولة إحراق كتبه ومؤلفاته.

لقد أدخلت هذه الأزمة مفكرنا في حالة نفسية ومعيشية صعبة لكنه أبدًا لم يتخلى عن روح الفيلسوف الساخر "عندما لا نستطيع دفع الشر فلا أقل من أن نسخر منه" لكن كانت تنتابه حالة من الضيق والمرارة حتى أسرَّ إلى زوجته بأنه يود لو يكتب كتابًا يسميه "الجهد الضائع".

لقد شعر طه حسين منذ هذا التاريخ بأن عليه أن ينتقل من معسكر الصفوة المنعزلة عن المجتمع (حزب الأحرار الدستوريين) إلى معسكر الجماهير (الوفد)، فقد شعر الرجل أن جماعة الصفوة من الدستوريين لن تمكنه من تحقيق مهمته نحو اكتمال مشروعه الكبير في تطوير المجتمع، لذا كان قراره الانتقال إلى الوفد بعد أن انتقل بمشروعه الفكري من مجرد الدعوة إلى التجديد في الفكر إلى الدعوة إلى التجديد في المجتمع نفسه، مطالبًا بتعميم التعليم ومجانيته ورفع الظلم عن الطبقات الشعبية، مكتشفًا أن المفكر المجدد الحر لا يستطيع أن يعيش مستريح الضمير وسط شعب جاهل فقير.

لعل هذه التجربة قد جعلت طه حسين أكثر قوة وجرأة وتأثيرًا في المجتمع.

د. محمد صابر عرب